مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 50 (ربيع 2002)، ص 100

تبدأ "مجلة الدراسات الفلسطينية"، اعتباراً من هذا العدد، بنشر مختارات من شقيقتها *Jerusalem Quarterly File* (ملف القدس) التي تصدر بالإنكليزية عن مؤسسة الدراسات المقدسية في القدس المحتلة. وهي فصلية تعنى حصراً بشؤون القدس. وتحفل بمعلومات وتحليلات قيّمة عن القدس في ماضيها وحاضرها، وعن الصراع الدائر بشأن مستقبلها بين الغزاة الإسرائيليين والمدافعين الفلسطينيين عن عروبتها وقداستها. وقد صدر حتى الآن 14 عدداً من المجلة، اشتملت على معلومات عن أحياء القدس العربية وما آل إليه أمرها تحت الاحتلال، وعن مكتباتها، وشخصياتها العامة، وعائلاتها البارزة، وذكريات أشخاص عن حياتهم في مدينتهم قبل الاحتلال، بالإضافة إلى معلومات عن مخططات وأعمال التهويد وتغيير معالم المدينة الجارية على قدم وساق، ومراجعات لأهم الكتب الصادرة عن المدينة. وقد اخترنا للنشر في هذا العدد مادة متنوعة تشمل عدداً من البنود المذكورة أعلاه، وسنوالي في الأعداد المقبلة نشر مزيد من المختارات من الأعداد الصادرة سابقاً، ومن تلك التي ستصدر لاحقاً في مواعيدها.

تاريخ الاستيطان اليهودي في البلدة القديمة في القدس*

نظمي الجعبة**

مقدمة

ليس من المستغرب استمرار التطرق لهذا الموضوع الغاية في الأهمية، والذي يعكس نفسه على شكل المدينة الحاضر ويعرض هويتها للتحدي ومن الممكن أن يلعب دوراً خطراً في تقرير مستقبل المدينة.

ما زال اليهود في البلدة القديمة في القدس أقلية صغيرة محصورة (2300 من مجموع حوالي 35 ألفاً) وأن البلدة القديمة ما زالت في مظهرها العام وطبيعة حياتها ونشاطها تنم عن هوية عربية واضحة المعالم. شكل سكان القدس العرب عام 1967 أقل من 20٪ من مجموع ما يسمى سكان "القدس الموحدة" فقد أصبحوا الآن، وبالرغم من سياسة التهجير والإحلال السكاني، أكثر بقليل من ثلث السكان قالبين السياسة الإسرائيلية تجاه القدس رأساً على عقب، مما دفعهم إلى إنشاء وزارات ولجان وزارية لشؤون القدس تهدف جميعها إلى تغيير روح المدينة وشكلها وبالتأكيد واقعها الديموغرافي. ومن جهة أُخرى فقد أصبحت القدس محاطة من جميع الجهات بطوق استيطاني شبه مكتمل، بحيث أننا لا نستطيع اليوم مغادة المدينة بالاتجاهات الأربعة (ثلاثة منها باتجاه الضفة الغربية)، دون المرور بإحدى المستوطنات.

لن يتسع المقام في هذه الورقة إلى التطرق إلى جميع النواحي التي أثرت على الاستيطان اليهودي في البلدة القديمة، وعليه سيقتصر حديثنا على المراحل المختلفة التي مرت فيها وسنحاول استخلاص أنماط هذا التمدد على أمل المساهمة في بلورة سياسة مضادة.

---

* **المصدر**: *Jerusalem Quarterly File*, no. 13, Summer 2001, pp. 58-64.
وقد قدمت هذه الورقة في ندوة "القدس في التاريخ: اتجاهات جديدة في تاريخ القدس"، التي نظمتها مؤسسة الدراسات المقدسية في القدس بتاريخ 15 و16 كانون الأول/ ديسمبر 2000، وستصدر قريباً في كتاب عن القدس في التاريخ تنشره المؤسسة ويحرره سليم تماري وعصام نصار.

** أستاذ في جامعة بيرزيت، متخصص بالدراسات الإسلامية.

أولاً: الوجود اليهودي في البلدة القديمة – نظرة تاريخية

لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال تتبع تاريخ القدس من منطلق عرقي، لأن حقل الآثار يعجز في كثير من الأحوال عن الإفصاح عن مثل هذه المعلومات. وقد فشل كثير من الحفريات والمحاولات في تطويع هذا العلم لينسب حقب ما قبل التاريخ إلى مجموعة عرقية معينة، آخذين بعين الاعتبار بأن نَسْب إنتاج ثقافي إلى حضارة معينة، يأخذ شكلاً أكثر جدية من المحاولات العرقية. إن هذا الأمر ينطبق إلى أبعد الحدود على فترات ما قبل التاريخ، في حين أن فترات ما بعد التاريخ والتي أمدتنا بمصادر مكتوبة، قد قربتنا أكثر من المفهوم العرقي. كما أننا يجب أن نحاذر، حتى في الفترات التاريخية، من المغالاة في إسقاط عرقي مطلق على منتج ثقافي معين. فمثلاً قد نطلق مفهوم الحضارة العربية الإسلامية على كل من الفترتين الأموية والعباسية، إن مثل هذا الإسقاط هو لتحديد الهوية الحضارية، لكنه لا يعكس أبداً مفهوم الأعراق والأجناس التي كانت تعيش في ظل هذه الحضارة، ولا يقلل من إنتاجها الحضاري وإسهاماتها فيها. على الأقل هذا المفهوم لا يعني أيضاً أن العرب قد شكلوا الأغلبية السكانية، ولا يعني أن المسلمين قد شكلوا الأغلبية، لمن الهيمنة السياسية والحضارية قد كانت للعرب المسلمين.

ومن هذا المنطلق، فإن الحديث عن هيمنة يهودية في القدس إبان فترة معينة، لا يعين أبداً بأن اليهود قد شكلوا الغالبية السكانية. فعلى سبيل المثال، فإن الصوت النازل من السماء على المحتشدين في مدينة القدس بحضور تلامذة السيد المسيح والرسل، قد تحدث بلغات مختلفة ومنها اللغة العربية، دلالة على التنوع الديموغرافي الذي شهدته القدس في تلك الحقبة (أعمال الرسل – الأول، الإصحاح 2:11 – 12).

بتدمير هيكل هيرودوس عام 70م تعرض الوجود اليهودي في المدينة إلى هزة عنيفة، لكن هذا الوجود قد قضي عليه كلياً عام 132–135م، عندما أصدر الإمبراطور الروماني هدريان أمره الشهير بمنع اليهود من السكن في القدس وفي الخليل وفي المناطق الواقعة بينهما. وعلى ما يبدو فقد تم التقيد بهذا الأمر إلى أقصى الحدود، لأن الآثار لم تكشف حتى اليوم أي موقع له علاقة باليهود أو اليهودية منذ ذلك التاريخ وحتى الفتوحات العربية الإسلامية (سنة 634 – 636م) في المناطق المذكورة، وأن أقرب موقع كان كنيساً يهودياً قد اكتشف في قرية السموع التي تبعد حوالي 10 كم إلى الجنوب من الخليل والذي عاصر الفترة الأموية.

ويبدو بأن هناك عودة يهودية محدودة وقصيرة إلى مدينة القدس سنة 614م حيال سقوط المدينة بيد الفرس الساسانيين، حيث تحالف يهود فلسطين ولبنان مع الغزاة الفرس انتقاماً من البيزنطيين المسيحيين بسبب الملاحقة الطويلة. وتدلنا المصادر التاريخية بأن الفرس قد مكنوا اليهود من المدينة، حيث جرت حركة تدمير كبيرة لكنائس القدس البيزنطية، رافقها مذابح ضد المسيحيين المحليين، كان أبطالها اليهود بتواطؤ ساساني وا1ضح، ومحاولة تهويد قسرية للسكان. هذه العودة إلى المدينة كانت شكلية قليلة التأثير، بالرغم من نجاحهم بالحصول على تكليف ساساني بحكم القدس. لقد تغيرت بلا شك السياسة الساسانية، من التحالف مع الأقلية اليهودية إلى التحالف مع الغالبية السكانية المحلية. كما انتهى الأمر كلياً بعودة القدس إلى السيطرة البيزنطية على يد هرقل عام 628 – 629م، لتجري بحق اليهود حركة اضطهاد جديدة، وطرد جديد من المدينة (جون ولكنسون، "القدس تحت حكم روما وبيزنطة"، في كتاب "القدس في التاريخ"، تحرير كامل العسلي، 1992، ص 115 وما بعدها).

وعلى الأغلب دخل القدس مع المسلمين بعض اليهود، بالرغم من تناقض وتضارب نسخ العهدة العمرية في هذا السياق، والتي تعتبر مصدراً أساسياً حول الوجود اليهودي في القدس بعيد الفتوحات الإسلامية للمدينة، ولكننا لا نعرف حجم ومكان استقرارهم، وأول المعلومات تتوارد عن وجود مجموعة يهودي صغيرة وفقيرة، تعود إلى القرن التاسع الميلادي، وعلى الأغلب تشكلت من مجموعة من طائفة القرّاء "هقرائيتم" التي نشأت في القرن الثامن الميلادي بتأثير فقهي حنبلي إسلامي في بغداد. وكانت هذه الطائفة تؤمن بأن المصدر الوحيد لفهم الديانة اليهودية هو التوراة، ولم تُعْطِ أي اهتمام للتلمود أو المشناة. وبهذا تتشابه بالمذاهب الإسلامية التي رفضت مفهوم القياس والحجج العقلية والاجتهاد في التشريع. ومن المرجح وجود طوائف يهودية أُخرى في القدس مثل الربانيين طبعاً إلى جانب السامريين. كما يمكن الافتراض بأن علاقة من التنافس والتضاد قد سادت هذه الطوائف، لكن بسيطرة واضحة من جانب طائفة القرّاء التي كانت أكبر عدداً في القدس، والتي ارتبطت بالسلطة العباسية بعلاقات ودّ، خاصة وأن أصول جلهم عراقية وإيرانية، كما كانت تعينها في مواجهة اليهودية الربانية (التلمودية). لقد دفع هذا الصراع اليهودي إلى قيام طائفة الربانيين في القرن العاشر الميلادي بنقل المدرسة التلمودية العليا من الرملة إلى القدس لتعزيز تواجدهم في المدينة في مواجهة القرّاء. وعلى ما بدو فإن

القرن الحادي عشر قد شهد اختفاء كاملاً لوجود فرقة السامريين من القدس، مركزين بذلك على نابلس كموقع لقدس الأقداس. بالإضافة إلى ذلك فإنه من المعتقد بأن عدد اليهود الربانيين قد تناقص في القدس في هذه الفترة إلى حد التلاشي، مقتصراً على القرّاء، مما دفعهم إلى إعادة مدرسة التلمود العليا إلى الرملة ومنها إلى عكا ثم إلى صور، ومع الاحتلال الصليبي لفلسطين تم نقلها إلى دمشق حيث استقرت هناك قروناً عديدة. هذه الصورة تشكل انعكاساً لعلاقة اليهود بالقدس خلال هذه الفترة، وهي تشير إلى أنه بالرغم من الحرية النسبية التي تمتع بها اليهود بالسكن في المدينة، فإنهم استمروا في السكن في المدن الكبيرة، وخاصة العواصم مثل بغداد ودمشق والرملة، أو بالمدن التجارية الهامة مثل عكا وصور وصيدا، عازفين عن السكن في القدس. فقبل الغوة الإفرنجية للقدس عام 1099 كان عدد اليهود قليلاً بحيث أن مجموع ما فرض عليهم من ضرائب (جزية وضريبة رأس وضريبة حجاج وضرائب أُخرى) كان 100 دينار. إن هذا المبلغ الضئيل يعبّر عن عدد قليل جداً من يهود القدس، كما يعبّر عن فقر هذه الطائفة التي كانت عاجزة عن دفع هذا المبلغ مستجدية اليهود في كافة الأصقاع مساعدتها في دفعه. وبالتالي يمكن الافتراض بأن طائفة اليهود التي كان عددها 300 – 400 نسمو كانت تعيش على صدقات الحجاج اليهود القادمين من القاهرة أو من الأندلس خلال الفترة الفاطمية، وإن أمكن لنا تحديد مكان سكناهم فهو، كما تدلنا وثائق جنيزة القاهرة المعزية، في حارة باب حطة (إلى شمال الحرم الشريف). لقد انتهى هذا الوجود الرمزي عبر الحملة الصليبية الأولى عام 1099 حيث تعرضوا للمذابح الإفرنجية كما تعرض لها إخوانهم المسلمون لها. إن المصادر لا تقدم لنا معلومات وافية حول الكنيس اليهودي في القدس في تلك الفترة، حيث أن الرحالة الذين وصفوا القدس في تلك الفترة، من مسلمين ومسيحيين ويهود، لم يشيروا إليه، وهناك إشارة في المصادر الصليبية تتحدث عن ذبح اليهود في كنيسهم الذي تجمعوا به بعد اقتحام الفرنجة لأسوار المدينة، وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأنه كان كنيساً صغيراً، ليس به أية مميزات معمارية تلفت نظر حتى الرحالة اليهود. وإن كانت مصادر وثائق جنيزة القاهرة تفتح المجال لأعداد أكبر لليهود في القدس، فإن هذا الأمر ينطبق على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي وليس على نهايته[1]

[1] أنظر العديد من الدراسات حول الموضوع ومنها:
Encyclopedia Judaica, vol. 9 (p. 1411); Jacob Mann, *The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs* (New York: Gershon Cohen, 1970), pp. 135-142; Norman Stilman, *The Jews of the Arab Lands* (Philadelphia,

(كذلك راجع: شلومو غواتين، "القدس في الفترة العربية 638–1099" في كتاب "دراسات في تاريخ المدينة"، تحرير أمنون كوهين، القدس 1990، ص 11 – 34؛ محسن يوسف، "ديمغرافية القدس في نهاية القرن الحادي عشر مع رؤية للواقع الحالي"، في كتاب: كامل العسلي، "العلامة المقدسي وقضية القدس"، القدس 1996، ص 9 – 54؛ نظمي الجعبة، "ديمغرافية القدس في نهاية القرن الحادي عشر"، في: العسلي، المصدر نفسه، ص 55–66).

لقد انتهى الوجود اليهودي في القدس إلى جانب انتهاء الوجود العربي الإسلامي، بالإضافة إلى تحديد الوجود المسيحي الشرقي الأورثوذكسي، وجرت عملية إحلال ديموغرافي لاتيني غربي في القدس. ويمكن الانتباه إلى وجود ذكر لبعض اليهود، كما هو الحال بالنسبة للمسلمين، ممن دخل المدينة أثناء الفترة الصليبية، فالأمر لا يتعدى الحصول على إذن بالزيارة، في حين أننا نرى بأن بعض المسلمين، كما هو الحال بالنسبة للمسيحيين الشرقيين، قد أُحضر إلى المدينة لعدم توفر العمالة الإفرنجية الكافية لتوفير الخدمات، خاصة للأرستقراطية الإفرنجية الحاكمة.[2]

وبعودة السلطة الإسلامية إلى القدس بصلاح الدين عام 1199م، لم نجد ما يثبت وجود عودة يهودية جماعية إلى القدس. وعلى الأغلب اقتصر الأمر على عدة عائلات يهودية عادت إلى المدينة بعودة المسلمين إليها (حول ذلك أنظر: يوسف دروري، "القدس في عصر المماليك" في كتاب "القدس"، تحرير أمنون كوهين، 1990، ص 115–118).

يبدأ الاستيطان اليهودي في البلدة القديمة في نفس المكان المعروف بـ"حارة اليهود" خلال الفترة المملوكية، وعلى الأغلب نتيجة سوء الأوضاع العامة في الأندلس من جهة، وللتطور الحاصل نتيجة الحركة التنموية الشاملة التي خلقها الوجود المملوكي في القدس. لكن هذا الاستيطان قد بقي محدوداً جداً ومحصوراً في منطقة ضيقة بين حارة الشرف وحارة الأرمن وليس له علاقة بحدود حارة اليهود المتعارف عليها اليوم. ولم نحصل على إشارات تدلّ عليه، لا من كتب الضرائب، ولا من الرحالة الأجانب الذين تزايد عددهم بشكل كبير خلال هذه الفترة، ولا حتى من الرحالة اليهود الذين زاروا المدينة بشكل متواصل. وبالتالي يمكن الافتراض، وبشيء من الدقة، بأن

1979), pp. 154-155.

[2] Joshua Prawer, *Crusader Institutions* (Oxford, 1980), pp. 90-100; Stilman, op.cit., p. 193; Mann, op.cit., p. 192.

التركيبة السكانية للقدس لم تتغير على امتداد الفترة المملوكية من عام 1250م وحتى عام 1516م، حين سقطت القدس بيد الدولة العثمانية.

لقد أصبحت الدولة العثمانية تحتوي على أكبر تجمعات اليهود في العالم، واعتبرت الجالية اليهودية في مدينة تسالونيكي أكبر جالية يهودية مجتمعة في مدينة واحدة. وتمتع اليهود بحريات كبيرة نسبياً، من ضمنها بالتأكيد حرية التنقل والسكن كرعايا عثمانيين، كما تزايدت هذه الحقوق بنشوء وتطور نظام "الملة" الذي وفر إدارة ثقافية ودينية مستقلة للطوائف المختلفة ومن ضمنها اليهود. ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة، خاصة الليبرالية العثمانية، تجاه اليهود العثمانيين ويهود العالم عامة، حدثت حركة هجرة إلى بيت المقدس (قدس شريف بموجب التسمية العثمانية الرسمية) خاصة من فرنسا وإسبانيا والبرتغال وهنغاريا وألمانيا وإيطاليا. ومن خلال دفاتر الضرائب العثمانية، التي يمكن الارتكان النسبي إليها، يمكننا تصور عدد سكان القدس التي كانت فقط داخل الأسوار، ولنأخذ مثلاً عام 1563م لأن السجلات كاملة في هذه السنة حيث وصل عدد السكان إلى حوالي 12,700 نسمة منهم 1600 مسيحيين، 1200 يهود والباقي (9900) من المسلمين.[3]

وبهذا أصبحت نسبة اليهود إلى باقي السكان أقل من 10٪. وخلال القرنين التاليين تصلنا أرقام متضاربة حول سكان المدينة تجعلنا في وضع لا يسمح لنا بتصور الوضع على حقيقته، وجميعها أرقام تقديرية. وفي القرن التاسع عشر يتم تأسيس أحياء جديدة خارج أسوار القدس العتيقة، ويجري خلالها اختلاف جوهري حول تحديد مفهوم المدينة وحدودها، وكذلك فإن الأرقام التي وردتنا بشأنها هي مجرد تقديرات خضعت للمصلحة الطائفية أو الضريبية أو القومية. لكن المدينة شهدت، خاصة في القرن التاسع عشر، هجرة يهودية ومسيحية أوروبية منظمة وكثيفة، هدفت إلى استعمار القدس بشكل خاص وفلسطين بشكل عام. وصحيح أن التغيير داخل البلدة القديمة لم يكن دراماتياً، لكنه أصبح أكثر خطورة خارج أسوار القدس.

---

[3] حول الإحصائيات أنظر:
Amnon Cohen and Bernard Lewis, "Population in the Towns of Palestine in the 16th Century," eds. W.D. Huetteroth and K. Abdulfattah, Historical *Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century* (Erlangen, 1977), pp. 36-37.

ازدادت وتيرة الهجرة اليهودية إلى البلدة في القرن التاسع عشر وتنامت بظهور الحركة الصهيونية. ويمكن اعتبار عام 1860م عاماً على غاية الأهمية في نمو التواجد اليهودي في البلدة القديمة في القدس. فلم تعد الحارة "التاريخية" الضيقة وشديدة الاكتظاظ تفي بأغراض القادمين الجدد، فازدادت حركة الانتقال إلى باقي أحياء المدينة، خاصة في المناطق المحيطة بحارة اليهود مثل حارة الشرف، طريق باب السلسلة، عقبة الخالدية، طريق الواد، عقبة السرايا، وذلك إمّا عن طريق الشراء أو الاستئجار بعد رفع الحواجز القانونية العثمانية أو عن طريق اليهود العثمانيين. ومن الجدير ملاحظته أيضاً بأن التوسع اليهودي في حارة النصارى كان محدوداً جداً، وذلك كون النشاط الأوروبي والكنسي في هذه الحارة كان على أشده، مما جعل إمكانية الحصول على أماكن فارغة فيها شبه مستحيلة، كما كان هناك ميل يهودي عام إلى السكن بين المسلمين. وبهذا توسعت حارة اليهود، لكنها لم تكن يهودية خالصة أبداً، حيث أن القدس لم تعرف قبل عام 1967 مفهوم "الغيتو". فعلى سبيل المثال، تمكن اليهود (ائتلاف من مجموعة من الجمعيات) من شراء قطعة أرض واسعة (مساحتها ثلاثون دونماً) في الزاوية الجنوبية الغربية لحارة اليهود، بهدف إقامة مبان سكنية وذلك تحت حماية قنصل النمسا في القدس – وقد تشكل أصحاب المشروع بالأساس من يهود نمساويين وألمان وهولنديين. لقد أنتج المشروع حوالي 100 وحدة سكنية حديثة (في حينه)، وتكونت كل وحدة من غرفتين ومطبخ، وأُجّرت لليهود بمبالغ رمزية. كما شهدت نفس الفترة نمواً واضحاً في المؤسسات العامة، خاصة الكنس والمدارس الدينية وبيوت الضيافة، وحركة واسعة من الترميم: كنيس الخربا (للأشكناز) سنة 1864، كنيس تيفرت إسرائيل (للأشكناز) سنة 1876. كما بنى ورمم اليهود الشرقيون (السفاراديم) أربعة كنس هي: إلياهو هَنَفي (رمم 1835)، كنيس يوحنان بن زكاي (رمم (1839)، كنيس كيهيلات تسيون (من مباني القرن التاسع عشر)، وكنيس استنبولي (رمم 1835). لقد بنيت جميع الكنس المذكورة أعلاه على الطراز العثماني المسمى أحياناً بالطراز البيزنطي المتأخر (أنظر: يحيى الفرحان، "قصة مدينة القدس"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 90 وما بعدها؛ جمعية الدراسات العربية، "القدس حقائق وأرقام"، ص 30 وما بعدها؛ سميث ماغواير، "تهويد القدس"، القدس 1981، ص 5 وما بعدها).

خلال فترة الانتداب البريطاني تراجع الاستيطان اليهودي في البلدة القديمة بسبب نمو الأحياء الجدية خارج الأسوار، التي تتوفر فيها الخدمات العصرية من جهة،

ولازدياد حدة التوتر في العلاقة بين الفلسطينيين واليهود نتيجة وضوح البرنامج الصهيوني (سنوات 1921، 1962، 1929). وبهذا تُركت البيوت المستأجرة، وأمّا تلك التي يملكها اليهود فقد أُجّر بعضها للعرب أو بيع لهم أو تُرك بعضها الآخر فارغاً. وكان الوضع من ناحية سكانية عام 1948 داخل البلدة القديمة كما يلي: مجموع السكان 36,000 نسمة منهم 33,600 من الفلسطينيين (مسلمين ومسيحيين) و2400 من اليهود. ومن المثير بأن الوضع اليوم (عام 2001) قد عاد تقريباً إلى نفس التوازن (ماغواير، ص 14).

نتيجة لحرب عام 1948 وما تبعها من تقسيم القدس عبر سقوط الأحياء الغربية من المدينة تحت الاحتلال الإسرائيلي وتفريغ هذا الجزء من السكان الفلسطينيين، فقد فرغ شرق المدينة من السكان اليهود، وأصبحت حارة اليهود فارغة كلياً من السكان. وبسبب تدفق اللاجئين الفلسطينيين من سكان غرب المدينة إلى البلدة القديمة، فقد جرى إسكان بعضهم في حارة اليهود الخالية من السكان، وخضعت كل الأملاك اليهودية في هذا الجزء من المدينة لسلطة حارس أملاك الغائبين الأردني التي قامت بإدارتها والحفاظ عليها دون تغييرات تذكر. بقي أن نقول في هذا السياق بأن حارة اليهود كانت في أوضاع سيئة جداً نتيجة الحرب. فقد دمرت غالبية البنايات فيها، ليس فقط الملكيات اليهودية بل أيضاً العربية.

ثانياً: الاحتلال الإسرائيلي للبلدة القديمة في حرب حزيران/ يونيو 1967

المرحلة الأولى:

يبدو أن التخطيط للسيطرة على البلدة القديمة قد سبق احتلالها بفترة طويلة، كما شمل هذا التخطيط آليات السيطرة على المناطق المحيطة بها واستيطانها. وفي سبيل تتبع هذه السيطرة وأشكالها، فقد قمنا هنا بتقسيمها إلى مراحل ليسهل تتبعها:

(1) حارة المغاربة: حال الانتهاء من السيطرة على البلدة القديمة دخلت إسرائيل بنقاش بين جنرالات الحرب ورجال الدين (الحاخامين) حول مستقبل أجزاء معينة من المدينة. وقد انتهى النقاش بقرار توسيع الساحة المحاذية لحائط البراق بعد أن كانت مساحتها حوالي 120م^2. وقد تجاهلت القيادة الإسرائيلية مطلب الحاخامين وخاصة الحاخام غورين (حاخام الجيش الإسرائيلي عام 1967) بهدم قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك لإنشاء الهيكل الثالث. وبهذا أرسلت الجرافات مباشرة إلى

حارة المغاربة، ولم تمضِ ثلاثة أيام على سقوط القدس إلاّ وقد انتهى مسح وجود هذه الحارة التاريخية التي أنشئت في الفترة الأيوبية بعد أن أعطي سكانها مهلة ثلاثة ساعات لإخلائها. بلغ عدد العائلات التي شردت من الحارة 135 عائلة تعد حوالي 650 نسمة، وكان بين الضحايا عدد من المباني التاريخية، منها مسجد البراق والمدرسة الأفضلية، بالإضافة إلى تراث مغربي أندلسي رافقنا في المدينة مدة 900 سنة.

(2) إخلاء حارة اليهود: امتلك اليهود ما نسبته 15٪ تقريباً من مساحة حارة اليهود أي 105 بنايات من مجموع 700 بناية، وشكلت الملكيات اليهودية عام 1948 ما نسبته 0,6٪ من مجموع مساحة البلدة القديمة. في حين بلغت الملكيات اليهودية عام 1948 ما نسبته 13٪ من مجموع مساحة القدس بشرقها وغربها (خارج الأسوار).

في نيسان/ أبريل 1968 قامت إسرائيل بمصادرة 30 هكتاراً لإعادة إعمار حارة اليهود. وكان عدد الفلسطينيين القاطنين في ذلك الجزء من المدينة (الذي تجاوز بمساحته مفهوم حارة اليهود ما قبل 1948) حوالي 550 نسمة، غالبيتهم من الذين سكنوا الحارة قبل عام 1948. وقد تمت المصادرة بناء على القانون الانتدابي (1943) وذلك بهدف المنفعة العامة، كذلك استخدم قانون أملاك الغائبين، وبهذا تمت مصادرة كل الأملاك سواء عربية أم يهودية، تلك التي سكنت من قبل اليهود أو العرب، مستأجرين كانوا أم ملاّكاً، سواء كانوا مقيمين أم غائبين، لاجئين كانوا أم دائمين. وقد اقترحت إسرائيل تعويضاً قدره 500 – 3000 دولار للملكية الواحدة. ومع حلول عام 1975 تم إسكان ما مجموعه حوالي 1500 نسمة يهودية تقريباً فيما أصبح يسمى بـ"حارة اليهود".

تبلغ مساحة حارة اليهود اليوم 4 أضعاف حجمها عام 1948 (حوالي 17٪ من مجموع البلدة القديمة). لقد تمخضت هذه المرحلة عن وجود حارة عنصرية تخلو من غير اليهود، وذلك بموجب قرار محكمة العدل العليا الإسرائيلية الذي يمنع سكنى غير اليهود في حارة اليهود، وذلك طبعاً بهدف "التعايش المشترك والسلام الداخلي في المدينة." لقد بدأت أعمال الترميم وإعادة البناء وتأهيل الحارة مباشرة بعد ترحيل أهلها، وتم تبليط الشوارع والساحات العامة ببلاط حجري بعد إرساء بنية عصرية شاملة، ثم قامت شركة تطوير حارة اليهود بتدعيم وترميم المباني القائمة، خاصة تلك التي تعود في ملكيتها لليهود وإزالة المباني الأُخرى، خاصة تلك التي تعود في ملكيتها

للعرب، وتصميم مبان حديثة بديلة لتلك التي أزيلت، وبناء ساحات عامة جديدة، وبناء مواقف للسيارات خصيصاً لسكان حارة اليهود، وانتهاء بتصميم حديث لشارات الشوارع والفوانيس. كما شمل المشروع فتح فرع للبريد، وفروع للبنوك، ومركز للشرطة، وحوانيت استهلاكية، ومكتبات عامة، ومتاحف، ومحلات سياحية، وقاعات للاحتفالات والاجتماعات، ومؤسسات دينية (مدارس وكنس لمختلف الطوائف). لقد كان الهدف إسكان 650 عائلة في 650 وحدة سكنية على مساحة تقارب 300 دونم. كما شملت الخطة تأمين ممرات مستقلة لسكان الحارة تربطها بالقدس الغربية دون المرور بالأحياء العربية مستخدمين لذلك بوابات الخليل والنبي داود والمغاربة، وتأمين المواصلات العمومية لهذا الغرض. كما شملت الخطة تطوير عوامل الجذب السياحي لهذا الحي عبر إنشاء المتاحف: متحف الهيكل، متحف تاريخ الوجود اليهودي في البلدة القديمة، متحف تاريخ القدس في القلعة، عشرات الحفريات الأثرية التي رُبطت بحق أو بغير حق بالتاريخ اليهودي، وتم الكشف عن الشارع الروماني المعمد (كاردو)، وكنيسة النيا البيزنطية، والكنيسة الألمانية الصليبية، إلخ. ووضعت اللافتات على كل مبنى وشارع ولافتات توضح المعالم التاريخية الهامة في الحارة، كذلك طورت المسارات السياحية المؤشر عليها والتي تقود جميعاً إلى حائط المبكى. بالرغم من هذا الإنجاز الهام والذي استهلك عشرات الملايين من الدولارات إلاّ إن الزائر لهذه الحارة يلاحظ عدم انسجامها معمارياً مع باقي حارات المدينة بل إنها مشوهة كلياً للتراث المعماري للبلدة القديمة ولا تنبىء عن شيء معماري يهودي، وأنها قد تحولت إلى متحف للزائرين سواء الإسرائيليين أو الأجانب المقيد مسارهم بفعل الأدلاء السياحيين الإسرائيليين، كما أنها لم تخلق حياة طبيعية في الحارة، وأن الحارة لا تتعدى عنصراً دعاوياً ليس إلاّ، وأن الحارة عبارة عن "غيتو" يهودي صُنع بأيد يهودية. وأن القدس القديمة بالرغم من حارة اليهود اللامعة قد بقيت عربية، وأن الأحياء الأُخرى قد حافظت على حيويتها وجذبها العربي الشرقي الرابع بالرغم من كل عوامل الطرد.

(3) الحفريات الإسرائيلية: كما هو معلوم فقد لعب "علم" الآثار دوراً هاماً في تشكيل أسطورة الوجود اليهودي في فلسطين وارتكز عليه كثير من المقولات والمصوغات الصهيونية. ولا يتسع لنا المجال هنا للتعمق في هذا الأمر، ونكتفي بالقول إنه تم استخدامه على محورين، الأول تهميش الوجود الفلسطيني عبر زيادة المساحات المعلنة كمحميات تاريخية، واستعمالها كنقاط جذب سياحي، والمحور

الثاني إظهار الوجود اليهودي بشكل مميز لمنافسة مساجد وكنائس العرب في المدينة التي تطغى على الصورة الشمولية لها. وكانت أكبر المساحات التي تم استغلالها لهذا الغرض تلك التي تقع على الزاوية الجنوبية الغربية للحرم الشريف، والتي حظيت بنشاط مميز بحثاً عما يمكن أن يكتشف من بقايا الهيكل. لقد تكللت تلك الحفريات باكتشافات نادرة وعلى درجة عالية من الأهمية حول الوجود الأموي المدني (لا الديني) في القدس منتجة بذلك أربعة قصور أموية، وعشرات الأبنية الرومانية والبيزنطية، والتي تم تطويعها بشكل إجباري للتحدث عن أي شيء ذات علاقة باليهود. لقد امتدت أعمال الحفر إلى كل زاوية ممكنة في المدينة، ولم تنتج عن شيء ذي بال بالنسبة للتاريخ اليهودي. كما بدأت ومنذ نهاية الستينات حركة نشطة من الحفر دون مستوى الأرض بين أساسات المباني التاريخية منتجة بذلك ما يسمى بالنفق الذي افتتح على يد نتنياهو (رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق) في أيلول/ سبتمبر 1996. ويمكن فهم هذا العمل ليس من باب البحث عن خفايا القدس الكثيرة والتي نعرف جزءاً منها منذ قرن ونصف، بل من باب السيطرة على المدينة تحت الأرض لسهولة ذلك، وتهديد منطقة الحرم الشريف.

(4) مصادرة المدرسة التنكزية: يعتبر هذا المبنى من الروائع المعمارية المملوكية في القدس، تأسس على يد والي الشام المملوكي تنكز الناصري عام 1336م ضمن مشروع معماري متكامل ضم مدرسة وداراً للقرآن وأُخرى للحديث، ورباطاً للصوفية وداراً للنساء، وأُوقف على هذا مجمع معماري آخر تشكل من سوق القطانين وحمامي العين والشفاء وخان تنكز. لعبت هذه المدرسة دوراً حيوياً جداً في تاريخ القدس الثقافي، كما استقبلت غالبية من زار القدس من سلاطين المماليك وعمالهم وعلماء الفترة الملوكية ممن أم القدس، كما كانت مقراً للمجلس الإسلامي الأعلى برئاسة الحاج أمين الحسيني، ثم أصبحت محكمة شرعية (وبها تعرف اليوم). لقد تمت مصادرة هذا المبنى الواقع على مدخل باب السلسلة والمشرف على الجدار الغربي لمنطقة الحرم الشريف وتم تحويله إلى معسكر للجيش، أطلق الجنود من فوق سطحه النار عام 1996 على المصلين والمتظاهرين ضد فتح النفق، مرتكبين بذلك المذبحة الشهيرة.

(5) السيطرة على مجموعة من المواقع في البلدة القديمة بحجج الدوافع الأمنية، ومناطق قتل فيها إسرائيليون، وأُخرى مطلة على حائط المبكى، وأُخرى أملاك غائبين، إلخ.

المرحلة الثانية:

بدأت هذه المرحلة سنة 1977 بصعود الليكود إلى السلطة، وطبعاً مرة أُخرى بـ"حق اليهود بالاستيطان أينما أرادوا من القدس" لـ"تمكين التعايش السلمي بين العرب واليهود" لـ"الحفاظ على الفسيفسائية الحضارية للمدينة." كما امتدت هذه المقولات إلى كل أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة، بدعم حكومي رسمي ومعلن. ونعيد إلى الذاكرة هنا أن حركة غوش إيمونيم الاستيطانية قد تأسست تحت نفس الشعار. لقد خصصت الحكومة الإسرائيلية في نهاية السبعينات ميزانيات حكومية معلنة للسيطرة على العقارات العربية في المدينة، ووضعت الأولويات الاستيطانية في قلب أحياء الحارات الإسلامية، وعلى درجة أقل في حارة النصارى، وقد قدم شارون وزير الحرب الإسرائيلي، سيىء السمعة والصيت، نموذجاً حيوياً للاستيطان في البلدة القديمة عبر سيطرته على مبنى يقع بالقرب من باب العمود على المحور الرئيسي الذي يقود من ذلك الباب إلى الحرم القدسي الشريف، وتوالت السيطرة على العقارات على امتداد الجدار للحرم الشريف في المنطقة التي تمر من فوق النفق والتي تؤدي إلى ساحة حائط المبكى. وهنا يجب التنبه بأن الجدار الجنوبي للحرم الشريف والمنطقة الخارجية يقعان كلياً تحت السيطرة الإسرائيلية، كما أن ثلث الجدار الغربي يقع ضمن ساحة حائط المبكى والمدرسة التنكزية، ومن ثم ما يسمى بحائط المبكى الصغير الذي تجري محاولات دائمة للسيطرة عليه، وتجري المحاولات الحثيثة للسيطرة على باقي الجدار عبر توصيل النقاط الاستيطانية بعضها ببعض، وإن لم تنجح فعبر تحت الأرض أو أسطح البيوت.

لقد بلغ مجموع العقارات التي سيطر عليها المستوطنون خارج ما يسمى حارة اليهود 78 عقاراً، موزعة على الأحياء المختلفة، مركزة في طريق باب السلسلة، عقبة الخالدية، عقبة السرايا، حي القرمي، باب الساهرة. هذا بالإضافة إلى مبان متناثرة في حارة النصارى (مثل نزل سان جون) وحارة السعدية وباب حطة وبرج اللقلق.

المرحلة الثالثة: مرحلة ما بعد أوسلو 1993

يمكن تلخيص هذه المرحلة بتنشيط الحركة الاستيطانية وتيرة عملها لاستباق مفاوضات الوضع النهائي وخلق أمر واقع لا يمكن عكسه. كما تمثلت هذه المرحلة بحملة مكثفة في المنطق المحيطة بأسوار البلدة القديمة خاصة في سلوان والشيخ جراح ورأس العمود. كما قامت السلطات الإسرائيلية بشن حملة مركزة ضد مؤسسات

المدينة، أجبرت بعضها على ترك المدينة باتجاه مناطق السلطة الفلسطينية، وتطبيق سياسات إغلاق القدس (منذ عام 1993) وعزلها عن باقي أرجاء الضفة الغربية، كذلك الضغط على سكان المدينة في سبيل تركها. وبالرغم من كثافة الهجمة في هذه المرحلة إلاّ`ن نتائجها غير باهرة بالنسبة للإسرائيليين، فقد أصبحت عملية السيطرة على أي عقار شبه مستحيلة، وذلك كون المؤسسات الفاعلة في مقاومة تسريب العقارات قد أصبحت على درجة أعلى من الوعي والقدرة. وبالتالي فهذه المرحلة هي أقل المراحل – على الأقل داخل البلدة القديمة – إنتاجية بالنسبة للإسرائيليين (حول الأرقام والمساحات الواردة في هذا الجزء، أنظر: "مسح مدينة القدس"، دراسة غير منشورة، البيرة: رواق – مركز المعمار الشعبي، 2000).

ثالثاً: المجموعات والحركات الاستيطانية

هناك عدد من الحركات الاستيطانية الفاعلة في البلدة القديمة، وهي بالتأكيد مدعومة من قبل الحكومة الإسرائيلية بأذرعها المختلفة، كما تتلقى دعماً مادياً ولوجستياً ومعلوماتياً من بلدية القدس سواء على عهد تيدي كوليك أو إيهود أولمرت. إن أكبر حركة استيطان في البلدة القديمة هي الحكومة الإسرائيلية التي صادرت الكم الأكبر من العقارات، وهي التي بادرت إلى إزالة حارة المغاربة، وهي التي صادرت المدرسة التنكزية، وهي التي أوحت إلى محكمة العدل العليا بقراراتها العنصرية، وهي التي ترفض إخلاء المنازل من المستوطنين في حالة احتلالها. بالإضافة إليها هناك الحركات التالية:

(1) عطيرِت لِيوشنا: تأسست هذه الحركة عام 1979 عقب اجتماع بين آباء الحركة (يهود أميركيون بالأساس) مع المحامي شبتاي زخاريا (أحد أهم رموز الاستيطان في القدس والذي نشر كتاباً حول كل العقارات التي ارتبطت باليهود بطريقة أو بأُخرى، والذي يستخدم كدليل استيطاني للسيطرة على العقارات)، وهي جمعية لاربحية تهدف إلى إحياء تراث الهيكل وتجهيز رجال الدين للهيكل الثالث وعودة المسيح المنتظر. كما أن هدفها الثاني هو "تحرير" القدس من "الغرباء" وذلك لتوطين الكهنة فيها، لأن الأجواء العامة (الديموغرافية) لا تسمح بعودة المسيح. تتلقى هذه الحركة دعماً حكومياً رسمياً بالإضافة إلى دعم مؤسسة الحاخام الرئيسي الأشكنازي، وتقوم بجمع التبرعات من يهود أميركا وهي مسجلة رسمياً في الولايات المتحدة كجمعية لاربحية تعفى التبرعات التي تتلقاها من الضرائب.

(2) مجموعة عطيرِت كوهَنيم: تأسست سنة 1984 (مجموعة انشقت عن الأولى) وتؤمن بضرورة طرد كل العرب (تطهير المدينة) لتحضير الظروف الكاملة لبناء الهيكل الثالث، وعليه تقوم بتحضير أدق التفاصيل المتعلقة بالهيكل، وآخر إنجازاتها تحضير شمعدان الهيكل (المِنوراه) من الذهب الخالص بكلفة تجاوزت ثلاثة ملايين دولار، كذلك جهزت الأدوات المقدسة التي ستستعمل في الهيكل. وهي على علاقة وثيقة بحركة أمناء الهيكل التي تحاول كل عام وضع حجر الأساس للهيكل الثالث في الذكرى السنوية لدمار الهيكل الثاني والتي توافق التاسع من آب (حسب التقويم العبري).

(3) إلعاد: تأسست في مطلع التسعينات، تهدف إلى طرد السكان العرب من منطقة سلوان والشيخ جراح، لعمل تواصل استيطاني بين مستوطني البلدة القديمة وخاصة حارة اليهود وخارج الأسوار.

(4) يِشيفات برِكْات أفرهام: مجموعة صغيرة تتكون بالأساس من مجموعة من المجرمين السابقين الذين أعلنوا توبتهم وأصبحوا متشددين دينياً دون نفي تعصبهم القومي الصهيوني، لديهم توجهات صوفية، وتحتل بعض مباني البلدة القديمة ويشكلون إزعاجاً هائلاً للسكان لأن جزءاً هاماً من طقوسهم الدينية يتم بمرافقة موسيقى صاخبة تستمر حتى الفجر (لمزيد من المعلومات أنظر: ماغواير، "تهويد القدس").

من الواضح أن هناك تنسيقاً وتوزيعاً للأدوار بين الحركات المختلفة، وخاصة توزيع أماكن العمل والتركيز.

رابعاً: أسلوب السيطرة على العقارات

تجري عملية السيطرة على العقارات بأشكال متعددة، ويمكن الافتراض بوجود أرشيف مركزي لتجميع وتركيز المعلومات حول كل عقار في القدس القديمة، يتم من خلاله توزيع المعلومات على الجهات المعنية، ويمكن تلخيص الطرق بما يلي:

(1) ملكية يهودية.

(2) استعمال يهودي سابق.

(3) أملاك غائبين.

(4) أملاك عامة وحكومية.

(5) مواقع أثرية وتاريخية.
(6) بهدف المنفعة العامة.
(7) لأغراض أمنية وسلامة الجمهور.
(8) التورط بقروض بنكية ومن ثم الحجز على العقار.
(9) التورط بالمخدرات ومن ثم الابتزاز والبيع.
(10) عدم وجود ورثة.
(11) الإغراءات المالية.
(12) عبر السماسرة.

من الواضح أن النجاحات المحدودة التي توصلت إليها الحركة الاستيطانية اليهودية في البلدة القديمة قد تمت في الأوقات التي شهدت غياباً فلسطينياً منظماً وواعياً عن البلدة القديمة، وفي ظل غياب البرنامج الوطني. ويمكن اعتبار أن المرحلة الأولى في مقاومة الاستيطان في البلدة القديمة بشكل منهجي كانت في ظل الانتفاضة، وهذا ليس تقليلاً من أهمية بعض النشاطات التي قامت بها دائرة الأوقاف الإسلامية.

الآن أصبح الوضع أكثر إيجابية، لكن الخطر لم يزُلْ لأن البلدة القديمة ستتعرض في السنوات القادمة لامتحانات عسيرة يجب الإعداد لها بدقة، ويمكنني هنا التشديد على ضرورة وضع خطة وطنية لمقاومة الاستيطان داخل أسوار القدس، هذه الخطة تعتمد ليس فقط على عنصر المقاومة، بل على عنصر التنمية الاجتماعية، والاقتصادية، وتحسين شروط السكن، وترميم المباني وتطويرها.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf